



تشرين الثاني - كانون الاول ١٩٦٩

العدد الثالث والثمانون

امير شعراء المهجر

إيليا أبو ماضي

١٨٨٩ - ١٩٥٧

بقلم جرجي ابراهيم نصر

بين الشعراء من هم ناشيرو المثل العليا، وحاملو ألوية الجمال، وناقضو روح الحياة في الأمم، وموقرو الغذاء الروحي للشعوب، ومترجمو العواطف، ورسول السماء إلى الأرض.

والشاعر أبو ماضي من أولئك الشعراء الملهبين الذين رتلوا أناشيد الحميد على قيادة الحياة، فأبدع في ما تخيله وتصوره ونظمه بأسلوب رائع فنان.

وقد كتب عنه كثيرون من الأدباء المحققين والمعجبين به ونشروا دراسات وأبحاثاً دقيقة حللوا فيها عمق تصويره، وحن ذوقه، وسعة آفته، وشعوره للرفق، وموجبه الخلافة، وأبجوا أن قصائده أحدثت في الأندلس

واختصمات الأدبية دوماً استبقت فيه اشعر من سبانه العميق واستعداد ذلك
الرميق الزاهي الذي تألق نوره . وأضاء بلاد العرب حقبةً من الزمن :
وردةً لها مجدها العريق .

وقد ألمت بعضهم بنواح كثيرة من أدب هذا اللبناني وشباب عظيم تاريخ
ميلاده . فتركوه دون تحقيق ولا تدقيق : وجمعه متأرجحاً بين سنة ١٨٨٩
وبين سنة ١٨٩٥ .

ويطيب لنا قبل أن نأتي على تاريخ ميلاد الشاعر ونشأته أن نكتب
كلمةً عن تاريخ بلدته الخيطة . هذه البلدة الجميلة الراضية . على كنف
بكفيا التي أنجبت في كل عصر من عصور تاريخها المجد نخبة علماء محققين ،
يشعراء محيدين : ونواب جريئين : وأطباء نابغين ومهندسين قديرين وصحافيين
لامعين ، حلوا جيداً وجد لبنان بعثود من العز وانقخر .

الخيطة : لؤلؤة في عقد لبنان تقع شرقي بكفيا ولا يفصلها عنها سوى
عجري ماء شتوي يدعى : «ساقية الخيطة» وتعلم معنا عن سطح البحر
حوالي ٩٥٠ متراً : اشتهر أهلها بحدّة الذكاء . وسرعة الخطا . وأغلبهم
يشدون الشعر انعامي (الزجل) فهم لا يتركون مناسبة تمرّ دون أن يتباروا
فيها بأزجالهم . ومن تقاليدهم العريقة : انهم في كل سنة يعضرون حفلة
اثنين الباعوث في دير مار الياس شويماً : ويقضون فترة النهار في حفلة
«المنايع» التي هي عين ماء . أمامها ساحة كانت في الماضي منبهي يقع
تحت ضهور الشوير للجنة الشالية .

ومن عوائلهم اقتناء الطيور الداجنة والصائغة والمفرّدة : كعصافير
الحسون ، والنقل : وانكار ، لساع تقاريدها وأنغامها الشجية التي تنطلق
من أفواجاها بألسنة متنوّعة ولغات متعددة وترنم بها من سحر كل يوم الى
مسائه . ومن غريب ما يروى عنها : ان المرحوم ميخائيل العقل : توصّل
في الماضي الى تعليم كثاره ما يذكر بالنشيد الخديوي .

ولم ايضاً ميل بخاص الى التقاط العصافير حية بواسطة قضبان من
«الدبق» في فصل الخريف : وقد دأب شبانها منذ اقدم على بناء
«العرازيل» وقضاء فترة الصيف فيها ، «والعرازال» يشبه غرفة مرتفعة تقام
في وسط شجرة أو شجرتين متلاصقتين ، ويعدّ للراحة والمنامة والأكل :
وتوفّر فيه جميع أسباب الراحة والملاهي : ويرقى اليه بسلم من الخشب .
و«عرازال» الخيطة : يختلف عن باقي «العرازيل» : من جهة الاتقان ،

أو المرفع : إذ يحرس صاحبه على تشييده بين الأشجار الطبيعية : وتغطية جوانبه وسقته بالزّان (الوزال) والعنص (الملول) حتى ان بعضهم يسمون «العرزال» في وسط شجرة واحدة. ولا تزال هذه العادة متبعة لدى الكثيرين حتى اليوم. وفي شرق المحيثة تقع عين ماء تظلّلها غابة كثيفة جميلة من أشجار الدلب. ويطلّ علينا من الشرق شير زانع يدعى (شير عرب) يقف بجانب منظر صين بعيد.

وحلة الدلب : هي البقعة المفضلة لدى أبناء هذه البلدة. ولذلك ينشونها يوماً طلباً للراحة والتسّيح بمناظرها الساحرة. ويحبّون بنوع خاص أن يسيروا على طريقها في الليالي المقمرة ويناجوا النّيلك وما فيه من كواكب ونجوم. ويقول المغالون منهم : «كل الأقمار جميلة : لكن قر عين الدلب أكثرها جمالا».

وفي هذه المحلة ايضاً : عين ثانية تسمى : عين النوقا ، ويعتقد الأهليون : أنّ من يشرب من ماء هذه العين يصير ذكياً ، أو يزداد ذكاء إن كان من الأذكيا.

وكان ايليا أبو ماضي كثيره من الشبان ، ينضي الساعات الطوال في هذه البقعة الختارة ، يناجي فيها الطبيعة : ويستلهم الوحي والخيال تحت ظلال اشجارها الياسته .

وحينما جاء الى لبنان ١٩٤٨ زار بلدته : وذهب الى هذه العين وشرب من مياهها. ومياه عين الدلب : واستعاد ذكريات الطفولة والصباه وشخص الى زيارة بيته القديم الذي كانت تقوم الى جانبه شجرة تين باسقة طالما تسلّت اغصانها وهو صغير : ولكنه متي بالخبية والنشل : اذ تبين له : ان بيتاً من الشفاح : وفسحة بناية لآل اندراوس ، أقما مقام ذلك البيت وتلك الشجرة .

وقد جاء ذكر المحيثة في الصفحة ١٦٨ من كتاب تقويم بكفياً الكبرى وتاريخ أسرها المطبوع ١٩٣٥ والموضوع بقلم المؤرخ المعروف الشيخ ادمون بيليل ، فالتخصه بما يلي :

«المحيثة تصغير محيثة ، وهي لفظة عربية معناها المنشأة حديثاً : والشائع انه كان يوجد قريتها في شرقها القرب منها ، مكان عامر يدعى : وطا الجواهرية وقد قضى عليه ، كما قضى على جواره بعد انسحاب الصليبيين من هذه البلاد : وفي خلال سنة ١٥٤٥ وما بعدها : عاد سكان بكفياً

الأقلمون : فجددوا بناء بلدتهم وضواحيها وتقدموا رويداً رويداً في العلوم والصناعة والتجارة الخ...» ووردت أخبار مشاهيرهم بتفصيل مع نبذة عن أصل أسرة كل منهم .

وفي هذا الصدد قال العلامة المؤرخ المرحوم مواطني الخوراسقن يعقوب غانم البكاسيني (١٨٤٨-١٩٠٩) وروى في كراس مخطوط ما أنقله بحرفيته :

« انجني أو انجيدته - شالي بكفيا - أي مُحَدثة من بعد عمارة بكفيا من الأمير كيفا ابن الأمير سمعان حاكم بسكتنا من بني عبدون الموارنة عدد نفوسها (١٥٠) من الروم الأرثوذكس » .

وما يلتفت الانتباه في هذا القول . هو ان انجيدته : لا تقع في الجهة الشمالية من بكفيا : بل في الجهة الشرقية : وعدد سكانها اليوم يبلغ حوالي الف نفس : واللغة العربية لم تكن منتشرة بين سكان القرى الجبلية في عهد امراء المردة .

بعض نوابغ انجيدته : وقد انجبت انجيدته في مختلف عصورها . طائفة كبيرة من الأدباء والشعراء . أذكر من امواتهم على سبيل المثال لا احصر ، الشيخ ابراهيم المنذر وولده صلاح ، وابن شقيقه أسعد ، ويوسف نكد ، وأديب مظهر ، والدكتورين اسكندر بك رزق الله واسعد العنيش ، والياس حسن المعلوف : و مراد وايليا ابي ماضي .

ومن احيائهم اكتفي بذكر اسم الاستاذ ميشال بشير الذي طبع ديوان شعر في بيروت سنة ١٩٤٧ ، وسماه : « الغروب » . فداعبه الشاعر ابروماضي وقال له : لماذا اخترت لديوانك اسم « الغروب » : وكان الأولى بك ان تسميه : « الشروق » ؟

وأشير الى ان البارزين بينهم في الأدب والشعر ، وفي الطب ، والحقوق ، والهندسة ، والتجارة والصناعة والزراعة ، ومختلف الفنون عديدون يصعب احصاؤهم : ويطول البحث بتعداد اسمائهم .

مولد الشاعر : تضاربت الأقوال : واختلفت الآراء حول تاريخ ولادة الشاعر ، الذي اكتب عنه هذا البحث ، وكثر اللغظ والتأويل فيه ، حتى أصبح من المتحيل معرفة حقيقته ، ولذلك ذهبتُ خصيصاً الى بكفيا للتنبش في سجلات دائرة النفوس باذن خاض من مواطنه المدير العام للاحصاء والأحوال الشخصية يميند السيد بديع ابن الشيخ ابراهيم المنذر ، فتبين لي من قيود

احصاء اثنيانجرين العائدة الى سنة ١٩٢٤ ، انه وُلد سنة ١٨٩٢ وأن والديه هما : ضاهر ايليا ابي ماضي وسلي اسكندر . الآتي ذكرهما وذكر أولادهما بتفصيل ضمن رسالة خاصة بعث بها الي مختار بلديها .

ولما كانت هذه التقييد صورية : لا يركن اليها ولا يوثق بها : قصدتُ أن أراجع سجلات العماد في كنيسة الخيثة ، ولكن خاب ظني حينما بلغني انها حديثة : وعهدنا يعود الى سنوات قليلة . ولذلك استعصت عنها بتقابلة بعض الشيوخ والمترين ، لأخذ العلم من أفواههم : فأفادوا ان الشاعر هو من مواليد ١٨٨٩ .

ثم قابلتُ ابن خاله السيد حنا قبلان جرجس اسكندر المولود ١٨٩٤ فأفادني ان ابن عمه ايليا أكبر منه سناً ويظن انه من مواليد ١٨٨٩ .

ولزيادة التأكيد واصلتُ البحث والاستعلام : وتوخيتُ بنوع خاص معرفة الحقيقة المتصيدة : وإزالة الغموض عنها : فاجتمعتُ بشيوخ الخيثة المقيمين في بيروت : وبعلمنا أطلعتم على قصدي ، أكدوا لي : ان الشاعر ايليا ابي ماضي وُلد ١٨٨٩ بعد شقيقه مراد بنتين اثنتين .

ثم كتبتُ رسالة الى الدكتور فؤاد العقل في نيويورك لعلمي بأنه صديق الشاعر وابن بلدته : فتكرم برسالة مكتوبة باللغة الانكليزية أوضح فيها ، ان الشاعر ابا ماضي ولد في الخيثة في ١٥ ايار ١٨٩٥ .

ومما ذكرته مجلة «الأرثوذكسية» الصادرة في مرجيون في عددها ٨ و ٩ سنة ١٩٥٧ نقلاً عن جريدة «الجريدة» ، انه وُلد في ١٥ ايار ١٨٩٤ .

وأنا أعتقد ان الفريقين أصابا الحقيقة في ما يختص بتحديد تاريخ اليوم والشهر ، وأخطأ بتحديد السنة فقط .

وبالاعتماد على المعلومات الواضحة والشهادات الثابتة الواردة في هذا المقال ، والمبنية على أقوال المؤرخ الشيخ ادمون بلييل في كتابه السابق الذكر ، وأفادات شقيق الشاعر وابن خاله ومختار بلدته وشيخها ، أثبت إثباتاً قاطعاً جازماً لا يقبل الرد : ولا التعليل ، ان الشاعر ايليا ابي ماضي وُلد في الخيثة في ١٥ ايار ١٨٨٩ وغاب عن الوجود في بزوكلي يوم السبت ٢٣ تشرين الثاني ١٩٥٧ .

واتني أحيطُ القراء علماء بأن مختار الخيثة السيد طانيوس حداد ، كان قد وعدني بجمع المعلومات التي تعلق بالشاعر وأسرته ، وأفيدهم انه

قد يرَّبعده : وتكرَّم بالرسالة التي أثبتتها في ما يلي . مع ابداء شكري له على غيرته الوطنية . وتقديره للرجال العاملين المخلصين من أبناء وطنه . وهذا نصيها :

حضرة السيد جرجي نصر المحترم

تحية واحتراماً . استلمتُ كتابكم وبه تذكروني بما وعدتكم به سابقاً ، وسبب التأخير هو الاستقصاء : لاستقاء معلومات صحيحة : من مصادر ثقة ، عن نسب ونشأة شاعرنا الكبير المرحوم ايليا أبي ماضي ، وقد تبسَّر لي الآن معرفة ما هو قريب من الحقيقة : إن لم يكن الحقيقة بعينها ، وسأورده لكم مفصلاً .

إن والد صاحب الترجمة يدعى ضاهر ايليا بن طانيوس أبي ماضي من المحيثة . والدته تدعى قرنثلة (لم تعلم ابنة من) وهو من مواليد المحيثة ١٨٥٤ وله أخ يدعى نعم مولود في المحيثة ١٨٦٤ هاجر الى الاسكندرية بخلال ١٩٠٠ وتوفي فيها . وله أيضاً أخت تزوجت من المدعو شعيا الحداد من قرية عين الصفصاف في قضاء المتن الشمالي ، توفيت بدون عقب . وإن ضاهر المذكور والد الشاعر ايليا : كان متزوجاً من المدعوة سلمى ابنة جرجس اسكندر من المحيثة ، وقد رُزق منها خمسة ذكور ، واثني واحدة تدعى «جنى» وهذه تزوجت من أحد أبناء طليا في البقاع ولم تُرزق أولاداً ، وتوفيت بخلال الحرب الكبرى ، أما أولاده الخمسة المذكور فهم : مراد ، ايليا ، ميري ، طانيوس ، وإبراهيم .

١ - مراد مولود في المحيثة ١٨٨٧ متزوج وليس له عقب وقد توفي في اميركا بعد وفاة شقيقه ايليا بجمدة قصيرة . ٢ - ايليا مولود في المحيثة ١٨٨٩ . متزوج من المدعوة «دورثي» وقد أنجب منها ثلاثة ذكور وهم : رشارد ، ادوارد ، وروبرت ، والزوجة والأولاد أحياء يرزقون ومقيمون في بروكلن . وقد توفي ايليا هناك بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني ١٩٥٧ وله من العمر ثمانية وستون عاماً . ٣ - ميري توفي في اميركا (لم تعلم تاريخ وفاته) ٤ - طانيوس توفي في الاسكندرية بخلال ١٩١٠ هـ - إبراهيم توفي في المحيثة بخلال الحرب الكبرى ، وهو لاء الثلاثة الأخيرين غير متزوجين . والوالد ضاهر توفي في المحيثة بخلال ١٩٣٠ وله من العمر ستة وسبعون عاماً .

وان نابتنا المرحوم ابياً نشأ وترعرع في مستط رأسه المجددة : وكان ذكياً ، متوقداً للذهن منذ الطفولة . مولعاً بالترجل البيئاني ومعنى وقرآدي . وقد نظمته وهو ابن عشر سنوات . تعلم العلوم الابتدائية في مدرسة القرية : ثم سافر الى الاسكندرية بخلاف ١٩٠٠ : ومكث فيها الى ان سافر الى الولايات المتحدة الأمريكية بخلاف ١٩١١ وبقي فيها حين وفاته .

وفي سنة ١٩٤٨ زار وطنه لبنان للمرة الأولى والأخيرة بعد هجرته ، فأقيمت له حفلة تكريمية في بلدته المجددة يوم الأحد في ١٤ تشرين الثاني ١٩٤٨ .

هذه أصدق المعلومات التي استقيتها بالاضافة الى معلوماتي الشخصية ، راجياً ذكر اسمي وموافاتي بعدد من المجلة التي ستشرون مقالاتكم فيها : ولكم جزيل الشكر ، أدام الله خيرتكم .

عنار المجددة

٢٣ - ٣ - ١٩٦٦

طائيس حداد

نشأة الشاعر : ولما كان لا بد لي من تليط الأضواء الكاشفة على نشأة الشاعر ، واقتباسه العلوم ، فقد تين لي من المصادر الموثوق بصحتها انه وشقيقه الأكبر مراد قد تلقنا باديئ اللغة العربية على أصيلاً في صغرها ، على مواطنها المرابي التدبير والوطني الكبير الشاعر الناصر الشيخ ابراهيم المنتر (١٨٧٥-١٩٥٠) .

وكان الطالبان متوقفين في علميها ومواظبتها على الدروس ، وقدوة صالحة لكافة التلامذة ، ثم تابعا دراستها في مدرسة الآباء اليسوعيين في بكفياً ، وكانا أثناء العطلة المدرسية يترددان على بعض الحوانيت في قرنتها ، ويتصفحان ما فيها من كتب الأدب والشعر : ويعترفان منها ما لذ وطاب .

وكان والدهما ميسوراً في قرنته ، وصاحب أنوال لحياكة نسج الديما ، التي كانت رائجة في عصره ، وبذل في تثقيف أبنائه كل ما في وسعه ، وأشد كثيراً من الشعر العامي في كثير من المناسبات .

وكان ابيلاً في صغره ، ينظم الرجل كما تقدم ، ويشترك مع أخيه مراد في قصبي الطيور ، وقضاء الساعات الطوال في «صلاية» قضبان الديق ، لالفاظ العصافير ، وأنشاه العرازل بين الأشجار القضة الباسقة ، وسرح كلامها في الحقول والبساتين الخضراء ، والسهول المترامية الأطراف ، والغابات

الكثيفة . والأودية السحيقة . والجبال الشاهقة . ويتزودان ببعض حبوب من اثريون مع التين المنطوخ . ويعودان بعد جولة طويلة مزودين بغنائبها من السيد والتمير .

دجرته : في أوائل الجيل العشرين : كان كابوس الظلم والتعسف العثماني . مستطاً على رقاب الثبتين الذين كانوا يربحون تحت وصاة نير انبودية . ولذالك أخذوا يباجرون زرافات ووحداً الى أقاصي المعمور . سغياً وراء الرزق ، واستنشق هواء الحزينة . فانتشروا تحت كل كوكب . وكان الشاعر أبو ماضي طموحاً وذا أنفـس أية : فارتأى أن يهجر وطنه وينقل منه إلى بلد آخر . يرى فيه نور الحرية والحياة . وكان خاله قبالن جرجس طانيوس اسكندر . يتعاطى التجارة في الاسكندرية ويصطاف غالباً في لبنان . وبحكم وضعه . ومقتضى عمله : أخذ بمعيته ابن شقيقته مراد . شقيق الشاعر . وهذا سبب لأخيه بعد مدة محدودة : طرق الالتحاق به : وأفضه بفائدة العمل معه هناك : فاتتبع وسافر في صيف ١٩٠١ . وفي الاسكندرية تابع الأخوان دراستهما على أحد الشيوخ المتخرجين في الأزهر . فتلقنا أصول اللغة العربية ، والصرف والنحو والبيان والتعريف . ثم سافر مراد الى الولايات المتحدة الاميركية : وبقي ايليا يساعد خاله في عمله . وكان يطالع ويدرس في أوقات الفراغ ، ويتصلع بما كان يتلقاه على فـه وعلى غيره من الأدباء : ويستمع بالشعر القصيح : الذي مال الى قرضه واتعمق بأصوله ، وأخذ ينشر بعض قصائده : ويوزعها على معارفه وأصدقائه الذين تنبأوا له بمستقبل زاهر ، ونشر منها باقة في مجموعة سماها « تذكـار الماضي » .

ثم حنّ حنيناً شديداً الى أخيه في نيويورك ، وتلقى دعوة منه للسفر اليه ، لكنه فضل أولاً زيارة وطنه : فزاره في صيف ١٩١١ وقضى بين أهله فترة قصيرة : استعاد فيها ذكرياته القديمة ، ورأى أن لبنان لا يزال مكبلاً بالتيود : والأغلال ، والسيطرة العثمانية ، فحزنت نفسه ، واثارت في صدره : موجة من النعمة والألم : ونظم قصيدة جارحة : تعرض فيها للباطل الفاشع التي كانت الدولة التركية تنهجها إزاء بلاده ، وانتقد أساليب الحكم ، وفساد الادارة ، وخلل جهاز الحكومة ، وعرضها على استاذة الشيخ ابراهيم المنذر ، ففتحها وهدبها ، وأشار اليه بالسفر الى خارج البلاد فور القائها ، لتلا تعرض بسببها للملاحقة والاعتقال والسجن . أما عنوان تلك القصيدة فكان « الوداع » ومطلعها :

وحكومة ما إن تزحزحُ أحفناً عن رأسها . حتى تولي أحفناً

وبعد أن اتقى اشاعر قصيدته في احدى المناسبات ، وهاجم السلطات والأوضاع الناذة التي كان الوطن يعيش فيها . ودع أهل وذويه . وسافر حارباً الى الولايات المتحدة الاميركية للاتحاق بأخيه مراد .

وفي تلك البلاد تعاطى التجارة مع أخيه مدة من الزمن . ثم انصرف الى الأدب وانشاء الجرائد والمجلات : وتولى الدفاع عن قضايا لبنان والبلاد العربية بما أوتيته من قوة وجرأة . وكانت نفسه قد تفتحت وتدفقت بالصور الشعرية الرائعة على مختلف ألوانها وأشكالها ، فأصبح بفضل قصائده الخالدة : في طليعة رواد النهضة الفكرية في المهجر ، وامتدت شهرته الى مختلف أنحاء لبنان والعالم العربي .

حنينه الى وطنه : كان الحنين يراود أحلام الشاعر ، ويوجبه الى وطنه ويمسح خياله ، بما كان يبعث به في قصائده من الزفرات الحزينة ، ويثقه من الشوق المدين ، الظافح بالشعور الأليم ، نحو الديار والأهل والأحباب ، خصوصاً بعد أن نال لبنان استقلاله التام ، وانكشفت عنه تلك القامة السوداء .

وكانت نسيته الآتية ملتصقة ابنة احق الياس أبي ماضي ، تنقضى منه من حين الى آخر ، رسائل متضمنة فرط حنينه ، وألطف ذكرياته ، مع إظهار مرارة الشكوى مما يقبله وصدرة من لوعة وجوى ، بعد ثأن زاده اليعاد شوقاً الى تلك المغاني والمنازين . وهي تأسف لتفقد إحدى رسائله التي استعارها منها السيد عفيف نايف حاطوم من كترسلوان ولم يعدها اليها ، وما زالت تحتفظ منها بمقطع مؤثر جاء فيه قوله : . . .

« يجب أن ننظر الى الوجه الأجل في الحياة ، كانت لي أخت (جنى) فأحبك عنها بديلاً . وكان لك أخ (الياس) فأحسني بديلاً عنه . »
وقد أهدى اليها في ١٨ ت ٢ ١٩٤٨ ديوان « الخيالات » وضمنه في الصفحة ٦٢ رثاء والده .

وكانت تتلقى رسائل من أخيه مراد ، تعبر عما يعيش في نفسه من مرارة وأسى ، بعد أن فجعته للحر بأخيه الذي كان يؤنس في غربته ووحشته ، فأصبح وحيداً حزيناً يتوه بالأم القرية .

وفي خلال ١٩٦٠ أرسلها من (ميامي) وأحفها بتقدمة ديوان أخيه « تبر وتراب » الذي صدر بعد وفاته وتوجه بالعبارة التالية :

عربين احنة النائمة وذكرى الشاعر الغائب - الى النسبة الأدبية ملتينا
أبي ماضي . مع تحية شقيق الشاعر - مراد أبي ماضي .

وصح في آخر انكتاب بخطه تاريخ ولادة أخيه وحواله من سنة ١٨٩٠
الى سنة ١٨٨٩ كما صحح عبارة : نشر أبو ماضي في حياته ديوانين ،
بكلية أربعة دواوين .

وفي سنة ١٩٥٧ تلقت منه ديوانه «النابل» المطبع في مدينة
نيويورك ١٩٥٢ وهو مترج بهذه الكلمة :

الى اخت. الروح النسبية العزيزة ملتينا ابو ماضي : للذكرى من احنة
النائي مراد أبو ماضي .

أحوال والديه واخوته : اشتدّ الضيق ، وانتشرت المجاعة بين اللبنانيين
في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) وما استطاع الشاعر أن يمد يد
المساعدة الى أهله بسبب انقطاع المواصلات بين الولايات المتحدة ولبنان .
فانتقل والداه : ضاهر وسلمي وولدهما : ابراهيم وجني : من المحيدثة الى
زحلة : ومنها الى قرية طليا في البقاع ، بناء على دعوة نسيهم الشيخ ابراهيم
خليل اللثة ، فتوفرت لهم هناك سبل الإرتقاء ، وابتعدت عنهم أسباب
الثاقة .

ثم ارتحل ولدهما الآخر : ابراهيم مع بعض أبناء بكفيا والمحيدثة الى
طرطوس : للعمل الشمر والكسب الأوفر . فاعتلت صحته بسبب رداءة المناخ ،
والانتقال الى وسائل الدعاية والاحتراز ، وخسر حياته بعد مدة وجيزة ،
وعرض أهله للحزن الشديد والأسى العميق .

أما شقيقته «جني» التي عرفت أيضاً باسم «اوجيني» فقد تعاطت
مهنة الخياطة ، واقترنت ١٩١٨ بالشاب : ابراهيم عمر الخوري نعيمه من
قرية قوسايا البقاع ، وأسكت والديها معها ، وما لبثت أن توفيت في السنة
التالية . وعلى أثر وفاتها عاد الوالدان الى المحيدثة ، وسافرا بعدئذ الى
نيويورك ، واجتمعا مع ابنيهما ، وانتهى الاجتماع برجوع الأب وحده الى
مسقط رأسه ووفاته فيه ، ثم بوفاة الأم عند ولديها .

وأبي في شعر أبي ماضي : لقد اجتمعت مرة مع صديقي الشاعر الكبير
الاستاذ محمد كامل شبيب العاملي ، وسألته عن مبلغ معرفته بالاستاذ ايليا
ابن ماضي وعن رأيه في شعره ، ومنزلته في عالم الأدب ، فاجاب :

كان يده مراسلة أدبية بيننا يعود الى عام ١٩٢٤ وكنتُ يومئذ استاذ الأدب العربي والفلسفة في كلية الثلاثة أقطار ، وكلية الاناث الأهلية لماري كساب ، وكنتُ ألقى المحاضرات على الصغين المنتهين بتكليف من الأديبة الشهيرة المرحومة مريم زكاً ، وكان جبران خليل جبران ، قد أصدر ديواناً شعرياً صغيراً أسماه «المواكب» وصادف ان السيدة ماري بنتي صاحبة مجلة (ميرفا) قد أقامت ذات ليلة ، حفلة تكريم للعلامة أحمد زكي باشا الذي كان يومئذ ضيف لبنان ، وقد جمعت الحفلة رحطاً من كبار الأدباء ، فانجملتُ فيها قصيدة نشرتها. يومئذ مجلة (الأحرار المصوّرة) التي كان يصدرها جبران توفني و خليل كسيب وسعيد صيغاه مطلعها :

قالوا القريضَ قتلْتَ طال صلودي قد لا أجيدُ صناعةَ التفريد
الشعرُ منبعُ الشعور يزجهُ ذلَّتْ النشيدُ ولاتَ حينَ نشيد
ماذا أقول لأحمدٍ إن قال لي إنَّ البعيدَ لديكَ غيرُ بعيد

وفي هذه الحفلة جرى ذكر مواكب جبران ، فكان رأيي فيه ، بأنَّ الديوان ليس بذى قيمة أدبية تُذكر ، فدفعته إليَّ صاحبة المجلة تسألني رأيي فيه بالمجلة ذاتها ، فلبَّيتُ الرغبة ، وبظننر أنَّ الردَّ كان قاسياً ينظر ايليا أبي ماضي ، فكذب لي كتاباً يرغب به اليَّ تلطيف لمجتي «بالمواكب» ولا أزال أذكر من كتابه هذه العبارة :

« ان الشاعر قد يُنظر اليه بعين أديب ، بغير المنظار الذي ينظره اليه أديب آخر ، وإنَّ مواكب جبران ، وان كانت ينظرك ليست بذات قيمة أدبية ، فهي بعيني على العكس من ذلك الى حد بعيد .»

ويأتي في مستهل الرسالة على ذكريات أيام صباه في لبنان ، ويختتمها بالشوق والحنين الى العودة ، وروية الأهل والوطن .

ثم جاء ايليا أبو ماضي لبنان عام ١٩٤٨ وهي الزيارة الأولى والأخيرة ، ولم أكن أعلم أنه حلَّ ضيفاً في أوتيل ريمنت ، ولكن اتفق لي اني كنت مدعواً مع الصديق قبلان عيسى الخوري والشيخ جيب جصج شقيق النائب السابق وهيب جصج ، فانتُ بلقاء الشاعر هناك . ويظهر أن صاحب «الريمنت» قد تبهه ليَّ على المائدة ، فحرص أن يفرغ من طعامه قبليَّ ، ليأخذ بتلايبي في الصالون قبل أن تغادر الأوتيل ، فاجتمنا وكانت جلسة طويلة لا تقل عن ساعتين ، استمرضا بها أموزاً أدبية متوعة ،

وكان لم ينل قصيدته الرائعة التي أعدها لدمشق . نشاء أن يطالعني عليها
كأنه خشي أن يكون هناك مأخذ على بيت أو بيتين أو غير ذلك ليستدركها .
لأن الذي لاحظته : ان ايليا أبي ماضي : كالياس فريحات . شاعران بالفطرة
أكثر منيا لغويان متمكنان في أصول اللغة : بعكس الشاعر الثروبي الذي
دنتي الاجتاع به . على أنه كالأستاذ بولس غانم . عليم بالمتغيرات .
وقواعد اللغة . وبالفعل أهديت لاييليا أبي ماضي عدة ملاحظات على بعض
أنتاظ وأبيات . تلقاها . برحابة صدر : وطيبة خاطر . وعمد فوراً الى
تبدليها على النحو الذي أشرت عليه به ، خلا بيت واحد : فاته رغب
للي ان يعرض بوضعه .

وايليا أبو ماضي كما بدا لي : شاعر خلوق : بعيد عن التصنع . وعن
الغطرمة والغرور . يتكلم بليحة مترنة حادثة : ويفرض على جليسه احترامه .
لأنه لا أثر للكلفة والتصنع والزهو والكبرياء في سماته وصفاته . وهو يعتر
كثيراً بالشعر الذي يصف به أيام طفولته : والتلقت في الأودية : وعلى
ضفاف الغدران : وبين المنطفات والظلال التي كانت ترسم أمام عينيه
في المهاجر . فتعيد اليه ذكرى الشوق والحنين : فنجري على نثبات قلبه :
وأسلات لسانه . فهو كان يتحدث كثيراً : مثلاً عن قصيدته « أنا » التي
يصف بها طفولته وسارحه مع أترابه في الحقول : أيام كان في وطنه :
مع أنها لا تجيء في الطبقة الأولى من شعره : ولكنها كانت تستشف عاطفته
على قاعدة :

« من أحب شيئاً أكثر من ذكره » وجل أحب الى قلب الإنسان من
أهله ووطنه اذا كان بعيداً عنها ، وقد طال المطال ، وبعد المجال ؟

أما قصيدته في دمشق ، فقد رفعت الى مستوى شوقي وبعض الشعراء
الذين لا يتجاوزون عدد أصابع الكف الواحدة أو الكفين من فحول الشعر
العربي في النبضة الأخيرة .

وما يجدر ذكره في هذا المجال : ان العلامة الشخير الأب انتاس
الكرملي رد مرة على سؤال وجهه اليه صديقه الحميم الشيخ ادمن بليل :
فقال :

أمراء الشعر العربي أربعة : أحمد شوقي في مصر ، وصدقي الزهاوي في
العراق ، وبنار الخوري في لبنان ، واييليا أبو ماضي في المهجر .

النهاية : سبقت الاشارة الى أن الشاعر جاء لبنان وزار بلدته ١٩٤٨
وأذكر الآن لزيادة الايضاح : انه لبي يومذاك دعوة الحكومة اللبنانية لشانبة
انعقاد مؤتمر الأونسكو في بيروت . وان أهالي امجدثة . اخشنوا تلك
القرصة : فاستبلوه استقبالاً حافلاً وأقاموا له - كما سبق وقال مختار
بلدتهم - حفلة تكريمية زاهرة - تجلت فيها مظاهر الإجلال والاحترام ومشاعر
الاكبار والافتخار .

وفيا كانوا يلحدون عليه بالبقاء بينهم ، اكفنى بقضاء مدة وجيزة في
لبنان . ورغم انه كان يشنى أن ترقد عظامه بعد وفاته : وتسترىح الى
الأبد تحت ثرى الوطن الذي أبصر فيه النور : غاد الى الولايات المتحدة ،
وفي نفسه شوق ، وبقلبه غصة : وظل هناك يذكر لمواطنيه المغتربين ،
ما رآه في الوطن الأم من تقدم وازدهار : الى أن هوى في ٢٣ تشرين
الثاني ١٩٥٧ فانطلقاً شعاعه : وخبا نوره الى الأبد .

وبعدما انتشر خبر وفاته وثبته بالآيات التالية :

حلّق النسر في الفضاء الكبير	في رحاب النجوم فوق الأثير
ثم أهوى على الحضيض صريعاً	تلك عتبي مغامرات السور
عباً من معين العلوم وأجرى	في رياض التريض فوح العير
فيكته إلهة الشعر شجراً	ونعته على نواح الطيور
كل غصن مرّيح ناح فيه	بلبل قد أطال رجح الزفير
أين ذاك الخزار في الروض يشر	قد عراه ذبول تلك الزهور
أطرب الطير والغصون غناءه	فرثه شعره والشعور
قد تغنى شعره كل حاد	أين منه معتقات الخمر
أكبرت خطبه البلاد فالت	واكنات الموع مثل الغدير
يا لوجي يغيب عنا سناه	في سطور تنزلت في سطور
يا حبيب التلوي وابن المعالي	وملاذاً لبائسٍ وقتير
وسليل الكرام من خير دوح	قد تحلّى بكل غصن نصير
لم يغادر في روضة الشعر معنى	لسواه في شعره المشهور
كل بيت كنفحة الطيب يسري	في الغدايا مضمخاً بالمطرور
كل يوم للعقربة جيل	وشهور تمرّ تلوّ الشهور

وخالدُ الذكْرُ في نتاجِ يراعٍ	ويراعُ الأديبُ نورَ العصورِ
كَمْ توأرى في القبرِ منا أديبٌ	يهرحى بالذكْرِ حتى التشرُّ
لا يراعي انبوعَ سيفِ المنايا	فالوضعُ الجنيولُ مثلُ التقديرِ
والليالي تشنَّ حرباً علينا	أين كنا فعيشنا في كدورِ
يا سيميرَ النجومِ صغرتَ اتقواي	ساطعاتِ كضوئها المنثورِ
أين منها عقودُ غيدِ حسانِ	تتدلَّى على مرآةِ النحورِ
يا قعيدَ البلادِ ما عشتَ بكفي	نخلودُ مُجانبَ بالدهورِ
خطبتك المنونُ شيخاً وقوراً	طاهرٌ الذليلُ والحجى والنصيرِ
لم تغيبَ في ظلِّمةِ القبرِ حتى	كنتَ منا مغيباً في الصدورِ

وكان رحمه الله عضواً عاملاً في الرابطة القلمية في نيويورك التي بعثت الأديب العربي في المنهج، وقد نال عدة أوسمة ومدايات بينها وسام الأرز الوطني اللبناني ووسام الاستحقاق السوري الممتاز ووسام القبر المقدس الأثوني كسي.

وإذا كان لي من أمنية، فهي أن تُعنى الحكومة اللبنانية بنقل رفات هذا الشاعر النابغة وأمثاله من العاقرة المهاجرين إلى مهود أحلامهم ومناقط رؤوسهم؛ لتستريح بقاياهم في وطن طالما أشادوا بذكوره وجزهم الحنين إليه، وأن تقام لهم تماثيل في ساحة الأونكر ونسج شوارع باسمائهم.

جرحي ابراهيم نصر

بكاسين (لبنان)